قرطاس

■ أحمد عبد الحسين

في نقد اللغو المحض

يفتقر ساسة العراق إلى الخيال، لا يأتون بجديد وليس لديهم ما يستحقّ أن يشاهَد أو يستَمَع، كلّ ما يأتون به من أفعال وأقوال محض إعدادات ثانوية للدفاع عن مواقع أقدامهم، ولكنهم مع ذلك يريدون أن تظلّ عيوننا معلّقة إلى أشخاصهم وآذاننا مشدودة إلى التقاط همسهم وزعيقهم. شأنهم شأن شاعر لا ينطوي على معنى جديد لكنه يرهق اللغة ويرهقنا ليبقَى مرئياً مسموعاً على الدوام.

غياب المعنى يلجئ صاحبه للاستنجاد بالبلاغة، كما أن غياب البرهان يلجئنا لزركشة كلامنا بالمطيبات والمحسنات اللفظية، فنكون بذلك شعراء سيئين، كما عبّر عن ذلك نورثروب فراي القائل "في الحياة اليومية كلنا شعراء سيئون".

وبالفعل نحن نستخدم أدوات الشاعر كلها تقريباً، اللغة والخيال والبلاغة، البلاغة خصوصاً التي تعني أن المتكلم لا يريد الحقيقة قدر إرادته قولَ كلام مناسب في وقت مناسب بأداة مناسبة. نحن ننشد البلاغة لا الحقيقة، وإن كان لفظ "الحقيقة" و"الواقع" مبتدأ هذرنا اليوميّ ومنتهاه.

كلام الناس رطانات بليغة يراد منها التعمية على الحقّ والصدق أو إفراغهما من محتوياتهما، خذ الخطاب السياسيّ مثلاً، إنه أكوام من المجازات والاستعارات الغرض الأساس المطلوب منها هو خلق نفوذ وجزم ويقين لأقوالهم، يرومون تكييف أعمالهم. التي هي غالباً محشوة بالسوء والتقصير والخداع والفساد. بكلام فيه البلاغة التقليدية التي تلهي السامعين عما يحدث لتجعله مشدوداً إلى ما يقال.

ماذا فهمتم أمس من خطاب السيّد الهاشميّ؟ الخطاب الذي أراده تأريخياً كاشفاً ملابسات قضية قانونية هي الأخطر بعد محاكمة صدام، لا جديد، لم يسعفه خياله السياسيّ المحدود "شأنه شأن خيال زملائه من حلفاء وخصوم" في إنشاء خطاب متماسك ذي لبّ، فلا هو أقرّ بالجرم، ولا هو دفع ببراءته واستعدّ للمثول أمام القضاء، ولا هو دافع عن جماعته، ولا هو ألقى بالتهمة عليهم، بل بقسمات وجه مذعور شائه وبلاغة تقليدية، حاول رصف كلمات القوّة والشجاعة والشكيمة والبأس ليكون قوياً فظهرت النتيجة ضعفاً بيّناً لرجل مهزوم حتى قبل أن يخوض الحرب.

ليس ضعف الهاشميّ إقراراً بالتهم المنسوبة إليه بالضرورة، لكنه بالتأكيد نتاج قلّة خيال، وتمثيل لإرث من الخطب الرنانة "خطب صدام مثلاً" التي تتستر على خواء، ومرة أخرى كشف خطاب الهاشميّ كم أن السيّد المالكي محظوظ بخصوم كهؤلاء، وكم أن السياسة عندنا أشبه شيء بشعر تافه خالٍ من المعنى.

تصوروا أن يقول سياسيٌّ كبير مطلوب للمحاكمة كلاماً كهذا "أنا ضدّ قرارات حكم الإعدام ..." كان ينقصه أن يضيف "بما فيها حكم الإعدام الذي سيصدر. بإذن الله. بحقي.." ليكتمل اللغو.

كثيرون نصحوا السيّد الهاشميّ بتسليم نفسه، هل يسمح لي الآن بالانضمام إليهم، وإذا كان يعتقد أن القضاء مسيّس وجب عليه الفرار والصمت صمتاً أبدياً لأنه أبلغ من هذه الخطب الفارغة.

التوجّه الإسلامي للمجتمع والدولة وقضايا النوع الاجتماعي

لعل من أهم سمات المرحلة التي يمر بها المجتمع العراقي اليوم هو الحضور المكثف للقوى المحافظة ممثلة بالدين والطائفية والقبائلية وتعاظم دورها كعوامل تتحكم بحياة الأفراد بشكل يفوق ما كانت عليه قبل فترات كمونها المؤقت في المراحل السابقة ، وبروز هذه القوى بهذا الشكل يعني كما يقول عبد الله الغذامي خروج المكنون إلى العلن سياسيا وثقافيا ومعتقديا وسلوكيا يقابله تراجع للمعاني الكبرى في المثاليات والحرية والمساواة . وقد أثرت الطائفية والقبائلية كمنظومات ذهنية وسلوكية على وضع المرأة في المجالات العامة والخاصة . فالمنظومتان تمتلكان انساقا مشتركة من الرؤية والتفكير في ما يتعلق بالمرأة بوصفها حارسة للهوية وجسدها بوصفه(مناطاً للشرف والعفة) .

★ د.أسماء جميل رشيد

ومنذ تسعينات القرن الماضي أصبح الإسلام ملمحا مركزيا في كل خطاب يدور حول قضايا النوع الاجتماعي سواء كان رسميا أم غير رسمي ما وفر أرضية مناسبة للكثير من الممارسات التي تهدف إلى تقييد اكبر لحريات النساء يرافقه تنزيل في المكانة . وتهيئة المرأة ذاتها لقبول حالة اللامساواة وتقييد الحرية من خلال ستراتيجية تهدف إلى إعدادها وتهيئتها وفق تربية إسلامية بحيث تجعل المرأة ذاتها تدعو إلى رفض مساواتها بالرجل والى عزلها وحجبها بحجاب مرئي وغير مرئي إذ جرت عملية تأطير أفكارها ورؤاها بشكل يضمن قبولها للقمع ويسهل فاعلية السلطة والهيمنة عليها.

وقد لعب الإسلام السياسي كجماعة مهيمنة بعد عام ٢٠٠٣ دورا مهما في تكريس عملية تهيئة النساء وإعدادهن للقبول الطوعي بالهيمنة فأكثر من ١٥٠ منظمة نسائية إسلامية تدعمها أحزاب الإسلام السياسي تعمل في كافة أنحاء العراق غايتها إحداث تغيير ثقافي حقيقي يساعد على تهيئة وتجهيز الواقع لنجاح المشروع السياسي للمنظمات الإسلامية في بناء دولة إسلامية . تكرست نشاطات هذه الجمعيات في نشر الحجاب والترويج له عبر مجالس التبليغ أوفعاليات واحتفالات تقام في المدارس الابتدائية تحت عنوان تتويج الفتيات في سن التكليف الذي يبلغ ٩ سنوات وقد يصل عدد المتوجات سنويا من قبل واحدة من هذه المنظمات في بغداد وحدها إلى ١٠٠٠مكلفة أي طفلة بعمر ٩ سنوات ، وترفض هذه الجمعيات مفهوم المساواة مابين الجنسين باعتباره مفهوما غريبا لامكان له في الإسلام ووضعت بدلا منه مفهوم تكاملية حقوق الجنسين وواجباتهما الذي تتبناه الناشطات الإسلاميات في العراق ويعني أن تفاوت الحقوق والواجبات الذي أوصت به القوانين الإسلامية هو جوهر العدالة الإلهية وينسجم مع قانون الطبيعة الذي يجسد ما رسمه الله للرجال والنساء في المجتمع كما تبنت ناشطات أخريات مصطلح العدالة بديلا عن مفهوم المساواة وهو مصطلح ظهرت الدعوة إليه أثناء الإعداد لمؤتمر بيجين عام ١٩٩٥ويركز على تأكيد حصول المرأة على الحقوق التي لا تتساوى بالضرورة مع حقوق الرجل دون أن تخضع هذه الحقوق إلى شكل من أشكال التراتبية وهذا الجزء الأخير بعيد عن إدراك الناشطات الإسلاميات في العراق . إذ أصبحت اللامساواة لديهن مطلبا يتم التعبير عنه مرارا ليس فقط بالدعوة إلى رفضه والترويج للمفاهيم البديلة بل من خلال التظاهرات أيضا كما حدث في صيف ٢٠٠٥ عندما اعتصمت مجموعة من الناشطات النسويات في ساحة الفردوس مطالبات بمساواة المرأة بالرجل داخل الدستور وتصدت لهذه الفعالية تظاهرة نسائية لتجمعات دينية تحمل لافتة لا للمساواة ، لتكن بمثابة الموقف الرسمي لفئة معتبرة من جماهير النساء حول مساواتهن بالرجل.

لاقت طروحات الإسلام السياسي المتعلقة بالمرأة القبول وتم احتضانها جماهيريا بسبب التهديد الذي خلقه انتشار مفاهيم حقوق المرأة بعد ٢٠٠٣ لدى الجماعات المحلية ذات القاعدة الثقافية التقليدية والموجهة من قبل رجال الدين والتي تنظر إلى هذه المفاهيم على أنها أفكار مستوردة ترتبط بدول يعاديها الإسلام و تهدد وحدة العائلة وتدفع المرأة إلى التمرد والمعصية وان هناك ضرورة لمواجهة هذه الأفكار بجمعيات إسلامية نسائية تعمل على بث القيم الإسلامية. والى جانب الإسلام السياسي بقواه وأذرعه التنظيمية كان الإسلام المتطرف يمارس تضييقا قاسيا على حركة النساء ولباسهن في المناطق ذات البنى العشائرية رغم مدينيتها الظاهرية .

فظهرت دعوات إلى الفصل ما بين الجنسين في الجامعات والمعاهد والمؤسسات وقد تحقق ذلك في جامعات الجنوب ،وفرض الحجاب على المرأة الذي تحول الآن إلى دعوات لتصحيح الحجاب تنتشر في بوسترات كبيرة معلقة في شوارع مدينة الكاظمية . وقد ألزمت النساء بأزياء جديدة مغالية في الحشمة تكشف عن ظهور منظومة مركبة عشائرية-دينية تهدف إلى السيطرة على جنس المرأة وعلى حركتها كجزء من سياسات فرض الهوية الجماعية. فالعباءة والقفازات والجوارب السميكة هي إضافات ذات أبعاد تحيل إلى منظومة مركبة عشائرية دينية أكثر من كونها إسلامية، بدليل أن هذا الزي يختلف بشكل كبير عن زي النموذج النسوي الإيراني الذي لا تدعمه العشيرة وتعزز نفوذه على المرأة بسبب مدينية المجتمع وغياب العشيرة فيه. ومنذ عام٢٠٠٣اصبح الحجاب في جنوب العراق وغربه ومدن الغيتوهات العشائرية في مدينة بغداد مثل الثورة والشعلة هو الزي التقليدي والشائع للمراة وهو المالوف اما النساء اللواتي يخرجن دون حجاب فيعتبرن خارج المالوف وخارج الحدود كمايعتبرن دون دفاع.لقد تم اسلمة الافراد من خلال ستراتيجيات تهدف الى جعل الافراد انفسهم يدعون الى دولة اسلامية. اما المراة الطرف الخاضع في معادلة الهيمنة فقد تبنت الافكار التي فرضها المسيطر والداعية الى عدم مساواتها وعزلها وحجبها بوصفها حقيقة غير قابلة للشك واصبحت الضحية تشترك مع جلادها في نفس التصورات عن العالم وعن جنسها وترى مثل الرجل دونية نفسها كحقيقة مطلقة تكتسب ثباتها من خلال المقدس.لذلك ليس من الغريب ان تخرج وزيرة الدولة لشؤون المراة وهي نتاج هذه البنية الثقافية وخاضعة لاملاءات الحزب الاسلامي الذي استوزرها بتصريحات ترفض فيها المساواة وتعليمات وقوانين لفرض الحشمة على النساء فمثل هذه المقولات اليوم لم تعد قفزا على الواقع وانما هي الواقع ذاته ،وما قامت به كممثلة للدولة انما محاولة لادماج حقائق السلطة الاجتماعية على شكل قوانين وهنا يكمن المازق والتحدي الكبير امام حقوق المراة.

ومضمون هذه التصريحات لايختلف كثيرا عن القرارات التي اصدرها مجلس محافظة واسط في تشرين الثاني لعام ٢٠٠٩ والقاضية بتعيين محرم مع كل عضوة من اعضاء مجلس المحافظة بناءا على طلبهن فالخطابان ينطلقان من الخوف من جنسانية المراة وتحديدا من جسدها ، وكلا الحدثين صدرا من النساء انفسهم وكلاهما ايضا اطرا بنية الهيمنة الذكورية في الخطاب الاسلامي بقوانين ولوائح وهنا لابد من محاولة فهم الخطاب الاسلامي حول زي المراة واختلاطها بالرجل وتفسير منطلقاته واسبابه واهدافه ومايكشف عنه من مخاوف الذهنية الاسلامية من المراة وجسدها ومايعنيه هذا الجسد داخل هذه الذهنية وهذه المحاولة يمكن ان تكون مدخلا لفهم الكثير من الممارسات والخطابات المتعلقة بالنوع الاجتماعي بما فيها قضية المساواة والتعليم والاحوال الشخصية والعمل والعزل الجنسي.

ان التشديد الواضح والمغالي في بعض الاحيان على القضايا المتصلة بالجنس والاسرة والاخلاق الاجتماعية هو احد الملامح البارزة في الخطاب الاسلامي اليوم رسميا كان ام غير رسمي سياسي او متطرف بحيث يمكن الذهاب مع حسن حنفي في قوله ان فهما جنسيا للعالم هو احد المميزات البارزة للمقاربة الاسلامية فهم يبداون بالحجاب والفصل بين الجنسين وحظر الاختلاط بكل اشكاله . والسؤال هنا مالذي وضع المراة في مقدمة الخطابات الاسلامية التي يزداد تسيسهاولماذا سيست قضايا المراة؟

ان الاسباب الظاهرة والتي عادة مايلجأ اليها الباحثون تفسر هذا التشديد والتسيس بوصفه نوعاً من المقاومة الثقافية تجاه الغرب)المستعمر بحيث اصبحت المرأة والاسرة تمثلان الحرمة الاخيرة التي يخاف من انتهاكها للهوية الاسلامية وبذلك فسرت الموجة المعادية للمراة في العالم الاسلامي بوصفها الية دفاعية في وجه التغيرات العميقة في دور الجنسين والموضوع الحساس المتعلق بالهوية الجنسية الذي اثارته التحولات الاجتماعية المعاصرة وقد اعترفت احدى الناشطات الاسلاميات في العراق ممن اتاحت لهن الاحزاب الاسلامية فرصة للمشاركة في الجهاز التشريعي (البرلمان) بان "ضخامة الحدث والخوف من التغريب تحديداً دفع قوى الاسلام السياسي للضغط بأتجاه التشدد في تبني مناهج دينية واجتماعية متطرفة كرد فعل للحركات التي بدأت تظهر على الساحة العراقية مدعومة من مؤسسات ومنظمات دولية تدفع بأتجاه تطبيق النموذج الغربي بكل تفاصيله". غير ان هناك حقيقة هامة وهي ان الخطاب الديني منذ بداياته وقبل السيطرة الكولينيالية قد عمد الى قمع المراة من خلال اسر جسدها وفرض الالتزامات والمحضورات عليه، ومنذ البداية دخل الجسد الانثوي ضمن الية للسلطة تنقب فيه وتفكك مفاصله وتعيد تركيبه مايعني وجود هدف اخر وراء محاولة السيطرة على جسد المراة ومحاربته وفرض لباس معين عليه ، قد يكون الخوف من ان تنفلت الجنسانية من عقالها ممايهدد بفتنة واضطراب اجتماعي واحد من جوانبه وجنسانية المراة هناهي المسؤولة والملامة بشكل خاص فالمراة هي التي يجب ان تلتزم بقواعد الزي والحشمة الا ان الهدف الاساس ينصب في مجال اعادة الصفقة البطريركية فالعزل الجنسي وحجب المراة يعملان في الوقت ذاته على اعادة توزيع السلطة مابين الرجال والنساء.

وتعد السيطرة على اجساد النساء واحدة من اهم الاليات لتحقيق الهيمنة الذكورية واعادة انتاجها اذ يعتبر الجسد موقعا للسلطة الضابطة يمكن من خلالها تحقيق الطاعة والخضوع من هنا اصبح الجسد واقعا في المجال السياسي وعلاقات السلطة التي تمارس هيمنتها فالهيمنة والسلطة تتحقق من خلال الجسد .

وخوف المؤسسة التقليدية دينية كانت ام قبائلية من جسد المراة ياتي من كون الجسد ينقلها الى الوجود من حيث يجب ان تكون غير موجودة او مشطوبة ، بعبارة اكثر توضيحا ان الوعي بالوجود لايتحقق الا من خلال وعي المراة بجسدها الخاص وادراكها له من الداخل وتحسسها به وهذا الوعي يعد شرطا اساسيا لوعيها بذاتها ووعيها بذاتها هو شرط اساسي لانعتاقها وتحررها من الاغتراب الملازم لوجودها ، وسفور المراة يعني انكشاف الذات والخروج الى الفضاء الارحب وتحول خلاق للذات لذلك تنصب مطالب الذهنية الاسلامية على التقشف الجسدي والحجاب انها محاولة لاماتت الشعور بالجسد ومعرفته وعدم التفكير به خوفا من استعادة الذات وتهديد بنية الهيمنة الذكورية.

فالغاية من الحجاب الذي تصر عليه القوى المحافظة هي اسر الجسد الانثوي لاستعبادالمراة وسلب حقوقها وحريتها. انه الية لمراقبة اجساد النساء ووضع الحدود لها وبذلك يتم حماية الهيمنة الذكورية من اي نزعة فردانية قد تؤدي اليها تجربة انكشاف الذات. فهو الاداة التي تعلن عن موت الذات عندما تكون مطاردة مراقبة محتجزة وخاضعة كليا،وهو رمزالحدود التي تفصل وتنظم وتسترجع جنس النساء لكي لايخرجو عن ارادة الجماعة .

كما ان الحجاب لايؤدي فقط الى جعل المراة مشطوبة من الفضاء العام غائبة من حيث هي حاضرة ومنزوع عنها فردانيتها وانما يؤدي الحجاب كسلطة ممارسة على الجسد الى خلق اجساد طيعة وصامتة ومنضبطة لاتتصرف الا كما يرادله ووفقا للفعالية المحددةز من هنا يمكن فهم الكثير من القضايا المتعلقة بالنوع الاجتماعي بالنوع الاجتماعي ابتداءا من عدم جواز سفرها بدون محرم وممارلاسات العزل الجنس وعدم اكمال الفتياة لتعليمهن والزواج المبكر والعنف الممارس ضد المرا ة، وغيرها من القضايا التي تهدف الى السيطرة على جسد المراة من اجل المحافظة بالتالي على الهيمنة الذكورية

★ نصّ الورقة التي ألقتْها الدكتورة أسماء جميل رشيد في الندوة الحوارية التي أقامتها "المدى" يوم السبت ٢٠١٢/٢/١٨ ، تحت عنوان "من أجل أن لا يكون مستقبل المرأة العراقية كحاضرها". "المدى " ستنشر غداً ورقة الأستاذ عمار السوّاد التي قرأت في الندوة والموسومة بـ" الإعلام وإجراءات وزارة المرأة".

كاريكاتير

■ عادل صبري

فاصل إعلاني في البصرة

ساطع راجي

ذهبت الحكومة بقضّها وقضيضها إلى البصرة لتقول للجميع إنها تعمل ليس فقط في بغداد ولكن أيضا في المحافظات وفي مقدمتها البصرة التي يحلبها العراق يوميا نفطا مجنونا يستصفى في مليارات الدولارات التي لا تترك أثرا مهما في حياة المدينة البحرية الوحيدة في البلاد كما يقول أهلها وساستها الذين رغم انتماء معظمهم أو البارزين منهم إلى ائتلاف رئيس الوزراء إلا أنهم مثل غيرهم من مسؤولي بقية المحافظات يشكون الإهمال وقلة الصلاحيات ويهددون بالأقاليم ليشوشوا بذلك رغبة المراقبين في تصنيف المطالبين بالأقاليم وفق صفوف مختزلة.

الحكومة التي تحتوي في داخلها على الحكومة والمعارضة في نفس الوقت ذهبت بشقيها إلى البصرة لتقدم فاصلا خدميا هو أشبه بفاصل إعلاني قصير يخترق مسلسل الأزمة وليقال إن الحكومة مازالت حكومة وليست حلبة ملاكمة بلا حكم يحافظ على سلامة اللاعبين أو يحدد قوانين اللعبة/المنازلة، وهذا الفاصل الإعلاني الخدمي سرعان ما اجتذب المشاهدين فسارع المسؤولون في المحافظات الأخرى للمطالبة بعقد قمم حكومية في محافظاتهم لعل تلك القمم تنجح في انتشالها مما هي فيه من مشاكل ولم ينتبه هؤلاء المسؤولون إلى أن كل الجلسات الأسبوعية للحكومة التي تعقد في العاصمة بغداد لم تنجح في انتشال العاصمة مما هي فيه. القرارات التي اتخذت في جلسة البصرة الحكومية تبدو كبيرة أو خارج المتوقع لكن هل سيكون تنفيذ تلك القرارات بالسرعة والجدية غير المتوقعتين في العراق أيضا أم أن إيقاع الحسم المعتاد في كل الأمور هو السائد أيضا مما يعني إن تلك القرارات قد لا تنفذ إلا بعد مرور سنوات إن نفذت أصلا أو أن تتعرض تلك القرارات لتأويلات وتفسيرات تفرغها من مضمونها وتحولها إلى انجازات وانتصارات ورقية. قد تتكرر الجلسات الحكومية خارج العاصمة بعدما لقته من إعجاب جمهور المسؤولين في المحافظات الذين يرغبون بحضور جلسة تأريخية لمجلس الوزراء في محافظاتهم وربما ليتمرنوا على حلم قد يتحقق يوما ما فينتقل عضو الحكومة المحلية إلى عضوية الحكومة الاتحادية، كما إن الجلسات في المحافظات قد تلقى هوى في نفوس الوزراء ورئيسهم لأنها ستكون تمهيدا لحملة انتخابات مجالس المحافظات وقد تكون أيضا استباقا لأي محاولة استذكار للتظاهرات التي جرت في مثل هذا الوقت من العام الماضي والتي ردت عليها الحكومة بفاصل بدعة المئة يوم وتبين إنه فاصل إعلاني تجريبي حيث لا سلعة ولا فكرة ولا نتيجة ترتجى منه، إنه فاصل شبيه بذلك الذي تقدمه الفضائيات عن نفسها عندما لا تجد ما تبثه لإشغال الوقت لكن فاصل المئة يوم سرعان ما انتهى أثره فجاء فاصل الجلسات العلنية لمجلس الوزراء، حيث تكدست الأرقام والخطط والتبريرات دون نتيجة، وهنا يجب التساؤل عن كمية الفواصل الإعلانية اللازمة لاستمرار الحال. المشاكل القائمة بين الحكومة الاتحادية والحكومات المحلية في المحافظات كثيرة وقد عقدت الكثير من الاجتماعات والمؤتمرات لمعالجة الوضع ولعل أهمها كان مؤتمر الأقاليم والمحافظات غير المنتظمة في إقليم الذي عقد برعاية مجلس النواب واختتم أعماله في ٢٠١١/٣/٣١ بعدما انعقد ليومين، وأصدر المؤتمر عددا من المقررات والتوصيات التي كان من المفترض إحالتها إلى مجلس النواب والحكومة الاتحادية والجهات ذات العلاقة لدراستها والعمل على تنفيذها بسرعة لكن شيئا من ذلك لم يحصل وتفاقم الأمر بعد ذلك حتى وصل إلى أزمة تشكيل الأقاليم الأخيرة والتي دفعت بدورها لعقد الكثير من المؤتمرات واللقاءات التي بذلت فيها الكثير من الوعود والتعهدات قبل أن يتبين إن كل ذلك ليس إلا فواصل إعلانية أخرى لا تعني ما تقول ولا هدف لها إلا تمرير الوقت لا أكثر.

الحكومة هي الحكومة والوزير هو الوزير في أي مكان عقد الاجتماع وإذا كانت الحكومة تفشل في حل مشاكل البصرة من بغداد فالأمل ضعيف في أن تنجح في حلها من البصرة لأنها ببساطة لم تنجح في حل مشاكل بغداد رغم كل اجتماعاتها التي عقدت في بغداد، وإذا افترضنا أن هناك نية حقيقية في حل الأزمات سواء في بغداد أو البصرة أو في أي محافظة أخرى فمن الخطأ المراهنة على أن أدوات ووجوه وآليات الأزمة وإدارتها هي نفسها التي ستنجح في حلها، وهو ما يستدعي إحداث تغيير كبير في المنظومة نفسها التي تتولى حل الأزمات، وإلا فإن إدارة البلاد ستكون مجرد سيل لا نهاية له من الفواصل الإعلانية.

أعذروني فأنا أفضّل الحذاء الخفيف

د. رغد السهيل

البدايات دائما صعبة بكل أمر، وبداية كتابة مقال يتعلق بقضية المرأة العراقية أيضا صعبة لسبب واحد إنني أحتار من أين أبدأ ؟ فهل أبدأ بمناقشة الفكرة العلمية خلف تحديد نوعية حذائي للنهوض بواقعي؟ أم يتوجب أن أبدأ بهذا الحشد الهائل من الرجال أكثر من النساء، الذي رأيته بعيني في دار المدى بالمتنبي يوم الجمعة الماضي، ونحن نعرض الخطوات العملية الفعلية ضمن برنامج محدد الأفكار للنهوض بالمرأة العراقية وبالتالي النهوض بالأسرة فالمجتمع فالوطن؟

شتان ما بين الاثنين، فالأول كلّ همه محصور بنوعية حذائي، والآخر يسمع أنين وجع المرأة العراقية محاولاً أن يضع لها حلولاً جذرية لا مهدئات ومسكنات. ربما يعتقد البعض أن فئة من النساء يعانين من نوعية أحذيتهن فأراد أن يحل تلك المعضلة، من خلال توجيهنا بارتداء أنواع معينة من الأحذية كي لا تؤلمنا أقدامنا الجميلة! وغاب عن بال هؤلاء أن المرأة تستطيع تغيير نوعية حذائها متى شاءت دون الحاجة لتعليمات من لجان، لكن أية أرملة تستطيع زيادة راتبها الشهري الممنوح من الدولة؟!، وأي عراقي بمقدوره زيادة وقت الكهرباء الوطنية لنصف ساعة إضافية؟!، وأي معاق يستطيع أن يجد البديل لساقه؟! المحاولة التي كانت في شارع المتنبي وحدها جديرة بالتوقف الحقيقي ..ذلك موقف تاريخي، أجمل ما فيه انه خرج من قلب دار الفكر والكتب والثقافة، من دار المدى، لأن الفكر الحقيقي إذا أراد أن ينطق فانه سينصف والمثقف الذي لا دور له شيطان أخرس. كان إنجازاً بعمل ميداني حقيقي، وبعيداً عن منظمات المجتمع المدني، التي تنفخ منذ سنوات في بالون مثقوب، ولا تجد من يسمعها ..اليوم الكل سمع .. أطياف العراقيين كافة سمعت ،الفقير والغني المرأة والرجل والأطفال أيضاً، وحتى هؤلاء النسوة المتسولات كن حاضرات أيضاً حيث سألتني إحداهن وهي تبيع الحلوى و تلف عباءتها الرثة حولها: لم هذا التجمع (شنو صاير أشو هوسه)؟

قلت لها: للمطالبة بإنصاف النساء.

قالت لي: (رحمة لوالديك أكو مسؤول هنا أقول له إنني أرملة ومريضة صاحبة ٦ أطفال وصار لي سنتين أحاول الحصول على منحة الأرامل دون نتيجة، وما عندي فلوس أروح أراجع كل يوم لدار الرعاية!) حتى المتنبي شعرت بروحه حاضرة وهي تنطلق من تمثاله مشيراً بأصابعه نحونا:

لا يمكن إحداث أي تغيير في أي مجتمع ولا يمكن أن تنجح أية قضية مالم يكن خلفها فكر مستنير بتجارب الآخرين، ومتذكر لأرواح شهيدات العراق اللواتي كنّ معنا جميعهن. لا تصنف القضية ضمن حقوق المرأة قدر ما هي حقوق شعب بأكمله اختزلوها بنوعية الحذاء! فحق الحياة الكريمة لكل الفئات من الأرامل والأيتام ونساء العراق المنهكات، خصوصاً أولئك اللواتي ينبشن بأكوام النفايات باحثات عن قوت عيالهن، وقضايا المعاقين والمعاقات، والكهرباء، وإنارة العراق، والماء الصالح للشرب، وإيجاد الدواء للمرضى المعدمين، وتعليم الأولاد في مدارس لائقة، كلها قضايا أهم بكثير من نوعية حذائي الذي كان أحد تعليمات لجنة النهوض بالمرأة!

ليست القضية أن ننجح أو نفشل بما نطالب به، قدر ما تتوقف على كيفية التفكير، وما هي أهدافنا الحقيقية، أهي حقاً النهوض أم التقييد والتكبيل لأكون محصورة الفكر بنوعية حذائي؟

شخصياً أعتبر العاشر من شباط ٢٠١٢ يوماً تاريخياً عراقياً محضاً، بجدارة وببساطة عميقة لأنه انطلق من الشارع، لم يكن في فندق خمس نجوم، ولم نكن نجلس في قاعة فخمة ونوزع الملفات، وندعو الشخصيات فيتم التصفيق ونتحدث بالإعلام، ثم نتناول الطعام وبعدها قبلات الوداع؛ إنما كان يوماً مميزاً في وسط شارع المتنبي الذي أنجب منذ عشرات السنين نازك الملائكة وسافرة جميل حافظ ونزيهة الدليمي وأمينة الرحال وبنت الهدى وبولينا حسون وسواهنّ ومن هذا الشارع أردنا حقاً النهوض بعلمية وعملية بالواقع المؤلم للمرأة.

تساءلت وأنا أبصر تلك اللوحة الرائعة التي وضعتها دار المدى على بابها في شارع المتنبي من نجوم عراقية نسائية شكلن مواقع مهمة في المحافل المحلية والدولية والعالمية: ما نوع الأحذية التي كانت ترتديها هؤلاء النسوة؟ وحاولت أن أربط بين نجاح هؤلاء النسوة وبين نوعية أحذيتهن فبحثت عن أي كتاب في المكتبات التي حولي، لم أجد كتاباً يكشف لي نوع علاقة كهذه بين الفكر والحذاء، لذا أعذروني لن أصدق الفكرة لأنني إنسانة علمية. في نفس الوقت وجدت أمامي طرحاً عميقاً متفهماً أبعاد حاجاتنا كبشر، بمعزل عن الجنس، لذا أتقدم إلى دار المدى وإلى أشقائنا الرجال الذين ساندونا ووقفوا معنا هناك بتجمع شعبي وتاريخي، لكل هؤلاء أتقدم بالشكر العميق باسمي الشخصي وباسم كافة نساء العراق اللواتي شعرن بعمق الإهانة حين يتدخل أحد باختيارهن نوع أحذيتهن، وأعذروني فأنا أفضل الحذاء الخفيف لأتمكن من حمل عقلي الثقيل وزناً ونوعاً!